الأمير السعيد

- اوسكار وايلد-

في مكان مرتفع، يشرف على المدينة وفوق عمود رخامي طويل كان يقوم تمثال الأمير السعيد، كان محلي بأوراق رقيقة من الذهب أما عيناه فكانتا يافوتنين زرقاوين براقتين. كانت تلمع على فيضة سيفه ياقونة حمراء كبيرة

كان جميلا فإننا حقا قال احد أعضاء المجلس البلدي وكان يبغي أن يذاع عنه أنه يملك ذوقا فنيا: " أنه جميل جمال دوارة الريح"

وأضاف خشية أن يتهمه الناس بأنه غير عملي، ولكنه ليس مفيدا فائدتها"

وسألت أم أبنها الصغير، وكان يبكي ويطلب منها أن تعطيه القمر:"لماذا لا تكون كالأمير السعيد أنه لا يفكر بالبكاء من اجل أي شئ في العالم"

وتمتم رجل خاب ظنه في الحياة وهو يحدق في التمثال الجميل: " يسرني أن يكون في العالم شخص واحد سعيد حقا"

وقال الأطفال الذين نشأوا في مؤسسة الإحسان وهم يخرجون من الكاتدرائية في عبا آتهم القرمزية ومراييلهم البيضاء النظيفة: "انه ملاك، فقال لهم مدرس الحساب: كيف تعلمون ذلك و انتم لم تشاهدوا ملاكا في حياتك. فأجابه الأطفال: رآه! ولكننا شاهدناه في أحلامنا. فقطب المعلم، لأنه لم يكن يستحسن للأطفال أن يحلموا.

وكان يطير فرق المدينة، في إحدى الليالي، طائر من طيور السنونو. وكان رفاقه قد سبقوه إلى مصر، ولكنه أقام ولم يرحل. كان مدلها بحب قصبة هيفاء من أبدع القصبات جمالا. و كان قد لقيها في مطلع الربيع وهو آخذ سمته نحو النهر، في أثر فراشة صفراء كبيرة فيجذبه خصرها النحيل ووقف يحدثها.

قال لها السنونو كمن يريد إن يصل إلى غرضه رأسا: "هل احبك؟" فانحنت له القصبة انحناءة رفيقة. وطفق يطير محوما، ويلامس جناحاه الماء فيحدث موجات فضية. بهذا كان يتحبب إليها ويغازلها إلى إن تقضي الصف.

وردد أفراد السنونو :" ما أسخفه من حب! إنها لا تملك مالا كثيرا. ولها مع غيره علاقات.."

والحق أن النهر كان مليئا بالفراشات. فلما أقبل الخريف رحلت كاها.

وشعر بعد رحيلها بالوحدة. وبدا يمل حبيبته. قال لنفسه: إنها لا تتحدث إلي قط، وأخشى إن تكون ذات دلال و غنج، فهي تتمايل أبدا مع الريح. والحق أن القصبة كانت تبدي منتهى الطف وغاية الأدب كلما هبت الريح. وأضاف: وإنني اعترف بأنها مؤدبة ولكنني أعشق الأسفار، وينبغي لزوجتي أن تعشقها هي أيضا. وقال لها أخيرا: "هل ترحلين معي؟، ولكن القصبة هزت رأسها ولم تجب. كانت متعلقة بوطنها تعلقا شديدا. فصاح: (كنت تستهينان بي. إني مغادرك إلى مصر، وداعا.، وطار عنها بعيدا. وظل يطير طوال النهار، ووصل المدينة في المساء فقال "أين

تراني أحط. آمل أن تكون المدينة قد تهيأت لاستقبالي، ثم رأى التمثال فوق العمود فصاح: "سوف أحط هناك، انه مكان جميل يكثر فيه النسيم العليل." وهبط بين أقدام " الأمير السعيد". وقال لنفسه وهو ينظر حوله: أن لي مخدعا ذهبيا. وتهيأ للنوم، ولكنه لم يضع رأسه تحت جناحه حتى سقطت عليه قطرة كبيرة من الماء، فصاح: "ما أغرب هذا! ليس في السماء سحابة واحدة والنجوم لماعة براقة، ومع ذلك فالجو ممطر. إن الإقليم في شمال أوربا مخيف حقا. لقد الفت القصبة حب المطر. ولكن ذلك لم يكن غير أنانية منها."

ثم سقطت عليه قطرة أخرى، فقال: ما فائدة التمثال إن لم يحمي من المطر، ينبغي أن أبحث عن مدخنة، وعزم على مغادرة التمثال. ولكنه ما نشر جناحيه حتى سقطت عليه قطرة ثالثة. ونظر إلى أعلى فرأي.

آه: ماذا رأى ؟

كانت عينا الأمير السعيد طافحتان بالدموع تنهمر واحدة بعد أخرى على خديه الذهبيين. وكان وجهه يبدو في ضوء القمر، جميلا فاتنا فأخذت السنونو به رحمة وقال: (من أنت ؟).

– (أنا الأمير السعيد). فسأله: ولم بكاؤك إذن؟ لقد بللتني تماما.

فأجابه التمثال: وعندما كنت على قيد الحياة، وكان لي قلب. بشري، لم أكن أعرف الدموع. كنت أحيا في القصر (الخالي من الهموم) والذي لم يكن يسمح للإحزان بدخوله. كنت في النهار العب مع

صحبتي في الحديقة، فإذا جاء الليل قدت حلقات الرقص في القاعة الكبيرة. وكان يقوم حول الحديقة سور شائق العلو، ولكنني. لم أعن بالسؤال عما وراءه، فكل ما حولي كإن به بهيجا جميلا. وكانت حاشيتي تدعوني بالأمير السعيد. ولقد كنت سعيدا حقا، إن كإن السرور هو السعادة. هكذا حييت وهكذا قضيت. وقد أقاموني على هذا المكان المرتفع أرى كل دمامة مدينتي وكل شقائها. وبالرغم من إن قلبي قد من الرصاص فلا يسعني إلا البكاء.

فقال السنونو في سره: (ماذا !.. أليس من الذهب الصلب إذن؟. كان مهذبا جدا فتحاشى أن يبدئ ملاحظته بصوت مرتفع.

واستطرد التمثال بصوت موسيقي حنون: و يوجد بعيدا عن هذا المكان في شارع متواضع، بدت حقير، إحدى نوافذه مفتوحة. استطيع أن أتبين خلالها امرأة جالسة على مائدة، وجهها رقيق متعب ولها يدان غليظتان حمراوان و خزتها الإبر. أنها تطرز أزاهير الحب على فستان من الدمقس لأحب الوصيفات إلى قلب الملكة وآثرهن عندها لترتديه في حفلة الرقص الملكية القادمة.. وعلى فراش، في إحدى زوايا الغرفة تمدد ابنها المريض. انه يشكو من الحمي ويطلب برتقالا وليس لدي أمه ما تعطيه غير ماء النهر ولذلك أراه يبكي. أيها السنونو أما السنونو الصغير! ألا نحمل إليها الباقونة من «قبض سيفي ؟ إن أقدامي مشدودة إلى هذه القاعدة فلا استطيع حراكا".

فقال السنونو: "إن أصدقائي ينتظرونني في مصر وهم يطيرون فوق النيل. يرتفعون ويهبطون ويناجون أزاهير اللوتس. ولن يلبثوا أن يذهبوا ليرقدوا في قبر الملك العظيم، هناك حيث سجي الملك في تابوته المصبوغ، وقد دثر بالكتان الأصفر، وحنط بالتوابل، و أحاطت بعنقه سلسلة من الحجارة الكريمة الخضراء، مشوبة بالصفرة. ويداه أشبه بالأوراق الجافة.

فقال الأمير: (ألا تمكث معي ليلة واحدة أيها السنونو الصغير، وتكون لي رسولا؟ أن الصبي عطشان مجهد، وألام حزينة مهدمة يكاد يودي بها الهم).

فأجاب السنونو "ما احسبني أحب الصبيان. فقد كان على النهر في الصيف الفائت صبيان كانا يرمياني بالحجارة. ولكنها لم يصيباني طبعا، فنحن معاشر السنونو نطير سراعا فلا تدركنا الحجارة. أضف إلى ذلك إني من عائلة مشهورة بحيويتها. ولكن ذلك كان منها دليل طيش وعدم احترام".

وكان يبدو على الأمير السعيد من أمارات الحزن ما آلم السنونو فقال: "إن البرد قارس هنا، ولكني سأمكث معك ليلة واحدة وأكون رسولك".

فقال الأمير: "شكرا لك أيها السنونو الصغير".

والتقط السنونو الباقونة من سيف الأمير وطار بها فوق اسطحة المدينة. مر بالكاتدرائية حيث تقوم الملائكة المنحوتة من المرمر. مر بالقصر وسمع صوت الرقص. وطلعت فتاة حسناء مع حبيبها إلى الشرفة،

وسمعه يقول لها: ما أجمل الكواكب! وما أعجب سلطان الحب!

فقالت له: أرجو أن يكون ردائي معدا لحفلة الرقص الملكية. لقد أوصت أن تطرز علبه أزاهير الحب. والخياطات منهمكات في العمل.

طار فوق النهر ورأى المصابيح معلقة على سواري السفن. مر فوق حي البورصة ورأي اليهود الطاعنين في السن يتجر بعضهم مع بعض ويزنون النقود بموازن النحاس. وانتهى مطافه إلى البيت الحقير فرأي الصبي على فراشه يسعل محموما، وقد نامت الأم من فرط التعب. فدخل إلى البيت ووضع الياقوتة على المنضدة إلى جانب كشتان الأم. ثم هو مرفق حول الفراش، ورف بجناحيه مهوئا جبين الصبي. ولم يلبث أن سمعه يقول: "لشد ما ينعشني هذا الهواء البارد! لا بد إن تكون صحتي آخذة بالتحسن. ثم غرق في سبات عميق لذيذ.

وطار السنونو إلى الأمير السعيد واخبره بما فعل وقال: ويا للعجب إنني اشعر بالدفء رغم برودة الجو.)

فقال له الأمير و ذلك لأنك قمت بعمل طيب.

واخذ السنونو الصغير يفكر. ونام أخيرا، فقد كان التفكير تبعث الرقاد إلى جفنه دائما.

فلما طلع الصبح طار إلى النهر واستجم، فرآه أستاذ علم الطيور وهو يجتاز الجسر فقال: ما اغرب هذه الظاهرة! سنونو في الشتاء؟

وكتب إلى الجريدة المحلية رسالة طويلة. اقتبسها كثيرون لأنها تضمنت كلمات تعذر علهم فهمها.

وقال السنونو وقد صمم على السفر: (سأذهب هذا المساء إلى مصر وقام بزيارة جميع الآثار العامة. وقضى مدة طويلة فوق برج مصر. الكنيسة. و كان، حيثما انجه، بسمع الشحارير تتهامس في ما بينها: ما أعجب هذا الغريب، فيطرب لأقوالها طربا عظما.

وعندما طلع القمر طار إلى الأمير السعيد وصاح: "أعندك رسائل إلى مصر، إني مغادرك الآن".

فقال له الأمير: أيها السنونو الصغير، ألا تمكث معي ليلة أخرى ؟"

فأجابه السنونو: "إن أصدقائي ينتظرونني في مصر، وغدا يطيرون إلى الشلال الثاني. حيث يتمدد حصان النهر بين أوراق البردي، وعلى عرش عظم من الصوان يرقد الإله (أمون). انه يرقب النجوم طوال الليل، وعندما يتألق كر كب الصباح يرسل صيحة الفرح، ثم يلزم الصمت. وعند الظهيرة تنزل الأسود الصفر إلى حافة النهر لترتوي. إن لها عيونا كالزمارد الخضراء وزئيرها اقرى من هدير الشلال.

فقال له الأمير: أيها السنونو. أيها السنونو اللطيف. إنني المح في المدينة بعيدا عن هذا المكان فتى في غرفة حقيرة. انه منحن على مقعد مغطى بالورق. وفي إناء إلى جانبه باقة من أزهار البنفسج الذابلة. شعره رمادي جعد وشفتاه حمراوان كالرمان وله عينان واسعتان حالمتان. انه

يحاول إن يكتب تمثيلية لمدير المسرح ولكنه يحس بردا قارسا منعه من المغي في الكتابة، ليس في موقده نار، وقد أذواه الجوع.)

فقال له السنونو، وكان ذا قلب طيب حقا: "لا مكثت معك ليلة ثانية. أن أحمل إليه ياقوتة أخرى؟"

فقال الأمير: ولم يبق لدي الآن أية ياقوتة. ليس لي سوى عيني، إنها مصنوعتان من اليواقيت النادرة التي جيء بها من الهند قبل ألف سنة. خذ أحداهن واحملها إليه، فلسوف بلدها إلى الجوهري ويشتري حطبا وينجز مسرحيته."

فقال السنونو: وإني لا استطيع إن آتي هذا الأمر أيها الأمير، وطفق يبكي.

فقال له الأمير: " أصدع بما آمرك به أيها السنونو الصغير."

فانتزع السنونو عين الأمير وطار بها إلى حجرة الطالب. و كان يسهل الدخول إليها من ثقب في سقفها. كان رأس الفتي مدفونا في يديه فسلم يسمع رفيف الجناحين. وعندما رفع عينيه رأي الياقوتة فوق أزهار البنفسج الذابلة. فهتف: (يظهر إن لدي قد اخذوا يتذوقون كتاباتي. فلا بد أن تكون هذه الباقونة من بعض كبار المعجبين. إني استطيع الآن انجاز مسرحيتي. وبدا فرحا سعيدا.

وفي اليوم الثاني طار السنونو إلى الميناء وحط على سارية سفينة:

كبيرة و اخذ برفي المحاربين وهم يسحبون الصناديق من غير السفينة وكانوا كلما اخرجوا صندوقا صاحوا: (هيلا. هيلا هوب)، فصاح السنونو: "أنا ذاهب إلى مصر"، ولكن أحدا لم يكترث لتحدائه وعندما طلع القمر طار إلى الأمير السعيد وصاح: جنت أودعك

فقال له الأمير: (إلا تمكث معي ليلة ثالثة أيها السنونو)

فأجابه السنونو: "نحن في فصل الشتاء، ولن يلبث أن يداهمنا الثلج. أما مصر فشمسها دافئة على أشجار النخيل الحضر. وتماسيحها تمدد فوق الطين وسنانة كسلي، وتنظر فيما حولها. إن أصحابي يبنون الأعشاش في هياكل بعلبك ترقبهم الحمامات البيض و القرنفلية

اللون بسجع بعضها البعض. ينبغي إن أفارقك أيها الأمير العزيز.. ولكنني لن أنساك ما حيات. ولسوف آتيك معي في الربيع القادم مجوهرتين جميلتين عوضا عن اللتين فقدتها. سوف تكون الياقوتة الحمراء اشد حمرة من الورد. وتكون الباقونة الزرقاء بزرقة البحر الخضم.

فقال له الأمير السعيد: "إني أرى في الميدان الذي بلى هذا المكان بائعة ثقاب أفلتت من أيدها صناديق الثقاب فسقطت في الماء وتلفت كلها. ولسوف يضربها أبوها إن لم تحمل إليه نقودا في المساء، فهي تبكي وتنتحب. أنها بدون حذاء ولا جوارب وليس لرأسها غطاء. فاقتلع عيني الأخرى، واحملها إليها كي لا يضربها أبوها.

فقال السنونو: "سوف امكث إلى جوارك ليلة ثالثة، و لكنني لا

أقوى على اقتلاع عينك فاني أن فعلت، أصبحت اعمي كل العمى.."

فقال له الأمير: "أيها السنونو. أيها السنونو الصغير أصدع بما آمرك به."

فاقتلع السنونو عين الأمير الأخرى وهبط بها إلى الميدان ثم هوى إلى الفتاة الصغيرة ودسها في يدها فصاحت فرحة: "ما ألطف قطعة الزجاج هذه. وانطلقت إلى البيت تعدو باسمة. ثم عاد السنونو إلى الأمير وقال له: "انك أعمى الآن فلأمكثن إلى جوارك ،. لا أفارقك أبدا."

– فقال له الأمير المسكين: "لا أيها السنونو الصغير. ينبغي إن. ترحل إلى مصر."

فأجابه السنونو: "لا مكثت إلى جوارك أبدا. ثم قام على قدمي الأمير".

وجلس طوال اليوم الثاني على كتف الأمير يحدثه عما شاهده في الأراضي البعيدة. حدثه عن الأحناش الحمر التي تقف صفوفا طويلة على ضفاف النيل وتصيد بمناقيرها الأسماك الذهبية. حدثه عن أبي الهول الذي يضاهي العالم في القدم، و يعيش وحيدا في الصحراء، ويعرف كل شيء. حدثه عن التجار الذين يسيرون ببطء إلى جانب جمالهم يحملون في أيديهم سبحات مصنوعة من العنبر. حدثه عن ملك جبال القمر الذي يضاهي الأبنوس في السواد والذي يعبد بلورة سحرية عظيمة. حدثه عن الأفعى الخضراء الهائلة التي تبيت في إحدى النخلات ويغذيها عشرون كاهنا بكعكات من العسل. حدثه عن الأقزام الذين يجرون فوق بحيرة

كبيرة، على أوراق واسعة مسطحة، وهم في حرب دائمة مع الفراشات.

فقال الأمير: "يا عزيزي السنونو الصغير انك تقص علي أنباء عجيبة. ولكن آلام البشر لأعجب من كل شيء. فليس في العالم من لغز أعظم من البؤس. حلق فوق مدينتي أيها السنونو الصغير، وانبئني بما ترى."

فطار السنونو فوق المدينة العظيمة ورأي الأغنياء يطربون في قصورهم الجميلة، بينما يجلس الشحاذون على الأبواب. طار بين الدروب والمنعطفات فرأى وجوها شاحبة لأطفال جياع ينظرون بفتور إلى الشوارع السود.. وكان ينام تحت قنطرة الجسر صبيان صغيران ضم احدهما الآخر طلبا للدفيء. وقالا: "ما اشد جوعنا، فصاح بهما الحارس: "ينبغي إلا تناما هنا.. فانطلقا يهمان تحت المطر.

ثم طار إلى الأمير واخبره بما رأى. فقال الأمير: و أنتي مغطى بطبقة رقيقة من الذهب. ينبغي أن تقتلع هذا الذهب ورقة ورقة وتحمله إلى الفقراء. إن الأحياء يحسبون دائما أن الذهب يستطيع أن يجعلهم سعداء.

فأخذ السنونو يقتلع الذهب ورقة بعد أخرى ويحمله إلى الفقراء، إلى إن أصبح الأمير السعيد باهتا قاتما، وكانت وجوه الأطفال تكسى بحمرة الورد شيئا فشيئا، فيأخذون في الضحك واللعب في الشوارع ويصيحون فرحين: "أصبح لدينا خبز."

ثم جاء الثلج وتلاه الصقيع. وأخذت الشوارع تتلألأ فتبدو كأنها مرصوفة بالفضة: وتدلت حبال الجليد كالخناجر الزجاجية، من أفاريز

المنازل. وكان الناس ويسرون مدثرين بالفراء وبدأ الأولاد الصغار يلبسون قبعاتهم القرمزية ويتزحلقون على الجليد. وازداد شعور السنونو بالبرد شيئا فشيئا. ولكنه لم يرد فراق الأمير، كان يحبه حبا مفرطا. فأخذ يدفئ نفسه بتصفيق جناحيه، ويلتقط فتات الخبز من الفرن على غفلة من عيني الخباز.

ولكنه على آخر الأمر أنه لابد هالك. وكان قد بقي له من القوة والجلد ما يمكنه من الطيران إلى كتف الأمير مرة أخرى فتمتم في أذنه وداعا أيها الأمير العزيز. أتسمح لي بتقبيل يديك؟)

فقال له الأمير: " يسرني أنك ذاهب إلى مصر أخيرا أيها السنونو الصغير. لقد مكثت هنا مدة طويلة. ولكن ينبغي أن تقبلني من شفتي لأنني احبك."

فقال السنونو: "لست بذاهب إلى مصر أيها الأمير، ولكن إلى منزل الموت. إن الموت شقيق النوم أليس كذلك ؟"

وقبل الأمير السعيد في شفتيه، ثم سقط ميتا على قدميه.

وفي تلك اللحظة سمع صوت غريب داخل التمثال. كما لو أن شيئا قد تصدع. والحق أن قلب الرصاص كان قد صار قطعتين. لاشك إن البرد كان قاسيا فظيعا.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي كان محافظ المدينة يسير في الميدان إلى جانب التمثال ومعه أعضاء مجلس المدينة، فتطلع إلى التمثال وقال: "عجبا! ما أكثر ما يبدو الأمير السعيد رثا؟"

فصاح أعضاء المجلس: "حق أما اكثر ما يبدو رثا"، وكانوا يسلمون دائما ما يقوله المحافظ. وصعدوا لينظروا إليه.

قال المحافظ: لقد سقطت الياقوتة من سيفه وذهبت عيناه ولم يعد فيه شيء من الذهب. والحق، انه لا يفضل احد الشحاذين إلا قليلا.

فردد الأعضاء: (اجل! لا يفضل الشحاذين إلا قليلا. وأضاف المحافظ: "ها هنا عصفور يرقد ميتا على قدميه. ينبغي أن نصدر بلاغا تحظر فيه على الطيور أن تموت هنا. وسجل الكاتب هذا الاقتراح.

وهدموا بعد أيام تمثال الأمير. وقال أستاذ الفن في الجامعة ولم تعد له فائدة، لقد فقد جماله. ثم ذوبوا التمثال في تنور، وعقد المحافظ اجتماعا لأعضاء المجلس البلدي لمقرروا ما يعملون معدن التمثال، وقال: (ينبغي أن نصنع تمثالا آخر. ولسوف يكون تمثالي أنا. فقال كل من أعضاء المجلس: بل تمثالي أنا. واختصموا، وكانوا إلى آخر ما سمعت، ما يزالون يختصمون.

وقال رئيس عمال الصهر: وما أغرب هذا! أن القلب الرصاصي المكسور لن يذوب في الفرن. ينبغي أن نرمي به جانبا. فرموا به فوق كومة من التراب، حيث القي بالسنونو أيضا.

قال الرب لأحد ملائكته: "جئني باثمن شيئين في المدينة" فجاءه الملاك بالقلب الرصاصي والعصفور الميت.

قال الرب: "لقد أصبت في الاختبار. فلسوف يغرد هذا العصفور في جنتي إلى الأبد. وليسبحن لي الأمير السعيد في مدينتي الذهبية.